بين النص والخطاب

أ . د . أبوبكر العربي المجدوب – كلية التربية العجيلات – جامعة الزاوية

المقدمة :

النص عملية إنتاجية له علاقة باللغة التي يتموقع فيها ، عن طريق التفكيك وإعادة البناء ، مما يجعله صالحاً لأن يعالج نفسه منطقياً ، فهو عملية استبدال من نصوص أخرى ، أي عملية تناص ، ففي فضاء النص تتقاطع أقوال عديدة مأخوذة من نصوص أخرى ، ويلاحظ أن مفهوم علم النص يستوعب العناصر الداخلة في تشكيل النص والمرتبطة بالإطار الخارجي المحيط به ، فيصبح النص هو القول اللغوي الأدبي المكتفي بذاته والمكتمل في دلالته ، فهو رسالة ناجمة عن نظام معين من المفاهيم والشفرات .

وفي الخطاب يتم دراسة الظواهر اللغوية في حضورها العيني المباشر ، بحثا عما وراءها من أنساق فكرية أو أيديولوجية (خطابية) هي التي تنتجها ، وتسهم في إعادة إنتاجها ، ولابد من الكشف عن البنية المضمرة للحصول على مبدأ التأويل ، حيث يتم في هذه الورقة البحثية تناول علم النص ومستوياته ، والخطاب ومستوياته والفرق بين النص والخطاب .

أولا ـ علم النص :

- النص لغة : الظهور والبروز والارتفاع

تقول / نص الحديث : رفعه ، ونصت الدابة رقبتها : رفعتها ، وينص أنفه : يرفعه ونصت العروس : رفعت على المنصة (1)

- النص اصطلاحا : نسيج كلمات منسقة في تأليف معين ، ويكون في شكل ثابت ، فهو مرتبط بالكتابة ، والنص يعني : تشكيلة لغوية ذات معنى تستهدف الاتصال ، تقول كرستيفا : النص هو جهاز عبر لغوي ، يعيد توزيع نظام اللغة وذلك بكشف العلاقة بين الكلمات التواصلية (2)

كما أن النص عملية إنتاجية تنتج عن : إعادة التوزيع عن طريق التفكيك ثم إعادة البناء وكذلك عملية استبدال من نصوص أخرى أي : عملية تناص (3)

- النص من منظور تفكيكي : يعني مبادئ تطبيق المفاهيم التطبيقية ، وهي : (4)

1 – النص إنتاج متقاطع ، يخترق عملا أو عدة أعمال أدبية

2 – النص قوة متحررة يتجاوز ما هو متعارف عليه وقد يخرج عن المعتاد

3 – النص متسع في تأويل المعاني

4 – النص مكتمل له دلالة ويتضمن إشارات وثقافات عديدة
5 – النص مفتوح يتجه إلى القارئ في عملية مشاركة وليست مجرد استهلاك

شروط النص : (5)

1 – السبك أو الربط النحوي
2 – الحبك وهو التماسك الدلالي أي الالتحام
3 – القصد وهو الهدف من ميلاد النص
4 – القبول من جهة المتلقي
5 – الإعلام
6 – المقام وهو مناسبة النص
7 – التناص وهو التقاطع والتعالق

مكونات النص : (6)

1 – التعبير : وهو التعبير من خلال علاقات اللغة داخل النص
2 – التحديد : أن تتوفر له بداية ونهاية في اللفظ – فصول ، مقاطع ، أبيات ، فقرات
3 – الخاصية البنيوية ، وهي بروز البنية وهذا شرط أساسي لتكوين النص
فالنص يمكن أن يكون رواية أو صفحات عديدة أو بيت شعري واحد

سمات النص : (7)

1 – العنوان . 2 – الإشارات الرمزية . 3 – علاقة النص بالكتابة وارتباطها بالخطاب
أي أنه هناك علاقة بين اللغة والكلام مع وجود فارق بينهما : اللغة ثابتة ، أما الكلام فمتغير ، واللغة مفروضة أما الكلام فهو نشاط متعمد ، واللغة جماعية أما الكلام ففردي ، وبذلك يكون النص هو عبارة عن كل خطاب تم تثبيته بواسطة الكتابة .

وقد يتكون مفهوم النص من تصورين :

1 – نص استاتيكي ثابت ، يعني النص الجامد وله خواص شكلية محددة مثل : الإيقاع والوزن والشخصيات .
2 – نص ديناميكي متحرك وهو النص المتطور حيث ينساق وراء التأويل (8)

معايير تحليل النص التي تتكفل القراءة بكشفها :

1 – المعيار المعجمي أو اللفظي 2 – المعيار الصرفي أو الصوتي
3 – المعيار النحوي أو التركيبي 4 – المعيار الإيقاعي أو الموسيقي
5 – المعيار البلاغي أو الفني 6 – المعيار الدلالي أو المعنوي
7 – المعيار الخطي أو الكتابي .

ثانيا ـ الخطاب :

الخطاب لغة : هو مراجعة الكلام بين طرفين أو أكثر (9)

الخطاب اصطلاحا : هو الكلام الذي يقصد به الإفهام ، أي إفهام من هو أهل للفهم

ومن التعاريف الحديثة للخطاب : إنه مظهر نحوي مركب من وحدات لغوية ملفوظة ، يخضع في تشكيله وتكوينه الداخلي لقواعد قابلة للتنميط (10)

ويخضع الخطاب للحقل الذي ينتمي إليه فنجده في الخطاب الأدبي ، والخطاب النقدي ، والخطاب الديني ، والخطاب الفلسفي ....

يقول عبد الواسع الحميري : الخطاب هو استراتيجية التلفظ ، أي برنامج التلفظ (11)

وللخطاب عدة أنظمة منها :

1 – نظام التوجيه 2 – نظام التركيب 3 – نظام الدلالة

مميزات الخطاب : (12)

1 – الترتيب 2 – قواعد الكلام 3 – الأسلوب الفني 4 – الأسلوب الفردي

5 – يبنى على موضوع 6 – نشاط تواصلي 7 – التلفظ .

الفرق بين الخطاب والنص : (13)

1 – الخطاب يفترض وجود سامع يتلقى هذا الخطاب ، بينما النص يتوجب متلقيا غائبا يتلقاه عن طريق القراءة

2 – الخطاب نشاط تواصلي يتأسس على اللغة المنطوقة ، بينما النص عبارة عن مدونة

3 – اللغة الشفهية تنتج خطابات ، بينما المكتوبة تنتج نصوصا

4 – الخطاب لا يتجاوز سامعه إلى غيره ، أي أنه مرتبط بلحظة إنتاجه ، بينما النص له

ديمومة الكتابة ، فهو يقرأ في كل زمان ومكان

إذاً الخطاب محدد بالقناة اللفظية بين المتكلم والسامع ، وهو كل ملفوظ يتعدى الجملة ، أما النص يستعمل في نظام خطي وله ديمومة رئيسية في كل زمان ومكان

سلامة الخطاب : (14)

لابد من مراعاة الدلالات والتراكيب والجوانب النحوية في سلامة الخطاب ، فقد يكون الخطاب سليماً من حيث النحو والتركيب ، ولكنه ليس صحيحاً من حيث الدلالات ، فالجوانب اللسانية والنحوية والبنيوية لا تكفي لسلامة الخطاب وفهم دلالته ، وبذلك يقوم تحليل الخطاب على عدة علاقات منها :

1 – البيان والتفسير : يتحقق البيان عندما يأتي اللاحق بيانا لكلة مفردة ، ويتحقق التفسير عندما يأتي اللاحق تفسيراً لتركيب الجملة .

مثال 1- دخلت الأستاذة عائشة إلى المحاضرة ، فكلمة عائشة بيان للأستاذة

مثال 2 - قال تعالى : ((فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى)) (15) فقوله تعالى ((فوسوس إليه الشيطان)) كلام مجمل ومبهم يجعلنا نبحث عما يفسره وهو قوله تعالى : ((قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى))

وواضح أن الكلام إذا ورد مجملاً تحرقت النفس شوقاً لمعرفته وتعلقت به أكثر وتوجهت إلى ما يرد بعده ويفسره ، فالبيان والتفسير قد لا يحتاجان إلى رابط لفظي كأداة الربط والتفسير (أي ، أن) .

أما مايحتاج إلى رابط لفظي للتفسير فهو مثل قوله تعالى : ((وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين)) (16) ، فالعلاقة بين الكلمة وبيانها وطيدة وإلا ما من حاجة لذكر الثاني الذي يرد في الخطاب لضرورة إزالة غموض في الأول بأن يشرحه بمرادف أو يحدد نوعه أو جنسه أو طبيعته

2 – الإجمال والتفصيل : لقد اهتم المفسرون كثيراً بعلاقة الإجمال والتفصيل ؛ لأنها من أهم العلاقات الرابطة بين آيات القرآن الكريم ، من ذلك مثلا قوله : ((تنزل الملائكة والروح فيهم بإذن ربهم من كل أمر)) (17) فقد خص الله تعالى الروح بالذكر بعد أن أجمل القول في (الملائكة) وليس ذلك إلا لغاية وهدف وهو تعظيم شأن المذكور وهو (جبريل) الذي ذكره مرة مع الملائكة ، ومرة أخرى وحده ، تفصيلا بعد إجمال .

لذا فإن تحليلنا للخطاب يجب أن يراعي اجتماع الخصائص اللسانية والقضايا الفكرية والاعتبارات النفسية والفنية ، واجتماع هذه الجوانب هو الخطوة الأساس لفهم أي خطاب .

كذلك يجب أن يتجاوز تحليل الخطاب كل هذا إلى ما هو أعمق باعتماد الاستقراء والاستنباط والتأويل ، وكذلك ما يتعلق بنفسية صاحب الخطاب وخلجاته الفكرية .

مثال : ألقى الأستاذ خطاباً أعلن فيه تاريخ بداية الامتحان .

فهذه الجملة فعلية تحوي جملتين داخلها بواسطة (الإحالة النصية) الموجودة في ضمير الهاء المتصل بحرف الجر والعائد على الخطاب المذكور في الجملة الأولى

، والجملة توصل إلينا خبرا واضحاً وهو تاريخ بداية الامتحان ، من خلال مكوناتها الداخلية .

نظرية الصدق أو الكذب :

هي فكرة إعادة ما في تراث الناقد من آراء تشترك في دورانها حول قضية معينة ، يمكن الاستفادة منها في الحقول المعرفية المختلفة مثل : علم الاجتماع ، علم الأخلاق ، علم الأدب ، علم الإنسان ، علم التربية ، علم النفس ... دون تعلقها بالنقد

فهي نظرية نقدية سبقت اللغويين والنقاد والمتأثرين بالفلسفة أي أنها : نتاج لمحاولات كثيرة غير مباشرة سابقة يمكن استرجاعها (18)

مستويات نظرية الصدق أو الكذب :

1 – مستوى العلاقات الموضوعية ، بين موضوع النقد وموضوع الأدب ، أو موضوع المعرفة العامة وموضوع المعرفة الثقافية .

2 – مستوى العلاقات النظرية ، بين النظريات بأنواعها ، كالنظرية النقدية ، والأدبية ، والنظريات العلمية في حقول المعرفة الأخرى .

3 – مستوى العلاقة التداولية ، أي : بين الناقد والمبدع والقارئ .

فالنظرية النقدية حوار متعدد الأطراف والمرجعيات ، فالصدق أو الكذب في الشعر يعني ما يلي :

1 – الصدق تعبير عن التجربة دون مبالغة وتهويل

2 – الكذب تعبير عن التجربة الشعرية مع مبالغة وتهويل

فالحكم على ذلك بالصدق أو بالكذب قائم على ما يجده المتلقي في نفسه تجاه المعاني الشعرية

فهناك الصدق الواقعي : وهو المطابق للذوق الاجتماعي ومطابق للواقع .

وهناك الصدق الفني : وهو أصالة تعبير الشاعر عن تجربته .

أما الكذب : فهناك الكذب الواقعي وهو المطابق لواقع حال الشاعر لا للواقع الاجتماعي ولا الأخلاقي .

وهناك الكذب الفني : وهو ما توجبه أصالة الصورة الفنية . (19)

يقول لبيد : ألا كل شيء ما خلا الله باطل – وكل نعيم لا محالة زائل (20)

الشطر الأول فيه صدق ، أما الشطر الثاني ففيه كذب ، وهذا يرجع إلى الواقع التخييلي الذي يندرج في عدة مستويات

1 – الإغراق : فهو الممكن عقلاً لا عادة ، كما في قول الشاعر :

مثال أ - قد سمعتم أنينه من بعيد فاطلبوا الشخص حيث كان الأنين (21)

ب – كأني هلال الشك لولا تأوهي خفيت فلم تهد العيون لرؤيتي (22)

ج – نكرم جارنا ما دام فينا ونتبعه الكرامة حيث كان (23)

2 – الغلو : وهو غير الممكن عقلاً ولا عادة :

مثال أ – أسرب القطا هل من يعير جناحه لعلي إلى من قد هويت أطير (24)

ب – أخفت أهل الشرك حتى أنه لتخافك النطف التي لم تخلق (25)

3 التبليغ : وهو الممكن عقلا وعادة :

مثال أ – وإني لجرار لكل كتيبة معودة ألا يخل بها النصر (26)

ب – فازورَ من وقع القنا بلبانه وشكا إليّ بعبرة وتحمحم (27)

النصية :

هي مشروع لإيجاد النصوص واستعمالها ، ولها عدة معايير منها :

1 – الانسجام 2 – الاتساق 3 – التناص

أولاً - الانسجام لغة : هو الانسياب والسيلان والسلاسة (28)

الانسجام اصطلاحا : هو الأبنية الدلالية المحورية الكبرى (29)

عناصر الانسجام : 1 – السبك : وهو النظام 2 – الالتحام : وهو التماسك

مبادئ الانسجام (أدواته) : 1 – السياق - 2- التأويل المحلي – 3 – مبدأ التشابه 4 التعريض

عمليات الانسجام : 1 – المعرفة الخلفية - 2 – الأطر - 3 – المدونات 4 – السيناريوهات - 5 – الاستدلال

ثانيا - الاتساق لغة : الانتظام والاجتماع والاستواء الحسن (30) قال تعالى : ((والقمر إذا اتسق)) (31) أي : انتظم واكتمل نوره .

الاتساق اصطلاحا : هو الأبنية النحوية الصغرى التي تظهر على مستوى سطح النص (32)

مظاهر الاتساق : (أدواته)

1 – الإحالة : وهي علاقة الأسماء بمسمياتها

2 – الوصل : وهو ربط أجزاء النص ببعضها

3 – الضمائر : الحضور والغياب

4 – الاستبدال : استبدال لفظة بلفظة أخرى لها نفس المدلول

5 – الحذف : حذف الاسم أو الفعل أو الجملة التي يسترشد بها القارئ

مستويات الاتساق : 1 – الدلالة ، أي : المعاني - 2 – الأشكال ،أي : الكلمات وهو النظام النحوي - 3 – الأصوات (الكتابة) وهي النظام الصرفي

إذاً الاتساق أمر يتعلق بالجانب النحوي التركيبي ، في حين أن الانسجام يتعلق بالجانب الدلالي ، ويشتمل على : السبك ، والالتحام ، والتماسك

فالاتساق والانسجام وجهان لعملة واحدة وهي (النص) فالأول يعني : ربط مكونات النص السطحي (الكلمات) ، والثاني يعني كيفية ربط تصوراته ومفاهيمه ، فهما يتكاملان تكاملا قويا في تشكيل عالم النص ، فالنص لابد أن يتسم بسمات التماسك والترابط .

ثالثا ـ التناص : وهو تداخل وتقاطع وتعالق نص مع نصوص أخرى (33)

ومن ذلك قول الشاعر :

صلاح أمرك للأخلاق مرجعه - فقوّم النفس بالأخلاق تستقم (34)

حيث تعالق هذا البيت مع قوله تعالى : ((وإنك لعلى خلق عظيم)) (35)

فقد أخذ الشاعر معنى الآية ووظف التناص توظيفاً حسناً ، بطريقة الامتصاص .

النتائج :

بعد هذه المساحة المتواضعة للورقة البحثية نستنتج الآتي :

1 – إن النص عبارة عن تشكيلة لغوية ذات معنى تستهدف الاتصال ، أي أن النص حدث تواصلي .

2 – إن النص مساحة متقاطعة ، ومتحررة ، ومتسعة ، ومكتملة ، ومفتوحة التأويل .

3 – إن ممارسة القراءة إسهام في التأليف ، ومعرفة الدلالات المنسجمة مع الخطاب .

4 – إن النص له هيكليته وسماته ومستوياته الخاصة به .

5 – إن الخطاب وحدة لغوية ينتجها المتكلم تتجاوز أبعاد الجملة والرسالة .

6 – الخطاب له أنظمته ، ومميزاته .

7 – هناك فرق بين الخطاب والنص ولكل منهما شفراته .

8 – لابد من مراعات سلامة النص والخطاب دون الخروج عن القواعد اللازمة .

9 – النصوص والخطابات لها مراحل تخيلية لابد من التفريق بينها .

10 – هناك علاقات تربط بين أجزاء النص والخطاب يلزم مراعاتها .

11 – هناك نظرية الصدق أو الكذب في النص والخطاب يجب الوقوف عندها

الهوامش :

1 – ينظر لسان العرب – ابن منظور – ت – عبد الله الكبير وآخرين – دار المعارف – مصر – مادة (نصّ)
2 – ينظر مناهج النقد المعاصر – د . صلاح فضل – أفريقيا الشرق – لبنان – ص 127
3 – نفسه - ص 127
4 – نفسه – ص 129
5 – ينظر بلاغة الخطاب وعلم النص – د . صلاح فضل – المغرب – ص 130
6 – ينظر مناهج النقد المعاصر (علم النص) صلاح فضل – مرجع سابق –ص131
7 – ينظر علم الأسلوب – د . عبد الكريم الكواز – منشورات ليبيا – ص 61
8 – ينظر مناهج النقد المعاصر – د . صلاح فضل – مرجع سابق - ص 130
9 – ينظر لسان العرب – ابن منظور- مصدر سابق - مادة (خطب)
10 – ينظر – ما الخطاب وكيف نحلله – د . عبد الواسع الحميري – ط 1 لبنان 2009 ص 6
11 – نفسه – ص 9
12 – نفسه – ص 9
13 – ينظر – علم الأسلوب – د . عبد الكريم الكواز – مرجع سابق – ص 64
14 – ينظر لسانيات النص – د . محمد خطابي – الدار البيضاء – ص 89
15 سورة – طه – 117
16 – سورة – الحجر – 66
17 – سورة – القدر – 4
18 – ينظر الصدق والكذب في الشعر – د . بهجت عبد الغفور – القاهرة – ص 105
19 – ينظر – الصدق في الشعر بين الفقهاء والفلاسفة – د . مصطفى محمد السيوطي لبنان – ص 90
20- ديوان لبيد – دمشق – ص 110
21 – ديوان ابن أبي الأصيبع – القاهرة – ص 117
22 – ديوان – شرف الدين الفارضي – الدار البيضاء – المغرب – ص 135
23 – ديوان – عمير التغلبي – القاهرة – ص 113
24 – ديوان العباس بن الأحنف – دار صادر – لبنان – ص 66
25 – ديوان أبي نواس – تحقيق : أحمد الغزالي – دار الكتاب – بيروت – ص 85
26 – ديوان أبي فراس الحمداني – بيروت – لبنان – ط 1 – ص 80
27 – ديوان عنترة بن شداد – دار صادر – لبنان – ص 25
28 – ينظر – لسان العرب – ابن منظور – مصدر سابق - مادة (سجم)
29 – ينظر – بلاغة الخطاب وعلم النص – د . صلاح فضل – مرج سابق - دار الشرق المغرب – ص 133
30 – ينظر لسان العرب – ابن منظور – مصدر سابق - مادة (وسق)
31 – سورة الانشقاق – 18
32 – ينظر – بناء الأسلوب في شعر الحداثة – د . محمد عبد المطلب – القاهرة ص 70
33 – ينظر – علم النص – جوليا كرستيفا – ترجمة : فريد الزاهي – دار النشر – المغرب - ط – 1991 – ص 21
34 – ديوان أحمد شوقي – الشوقيات – دار الكتاب العربي – بيروت – ص 70 35 – سورة القلم – 4